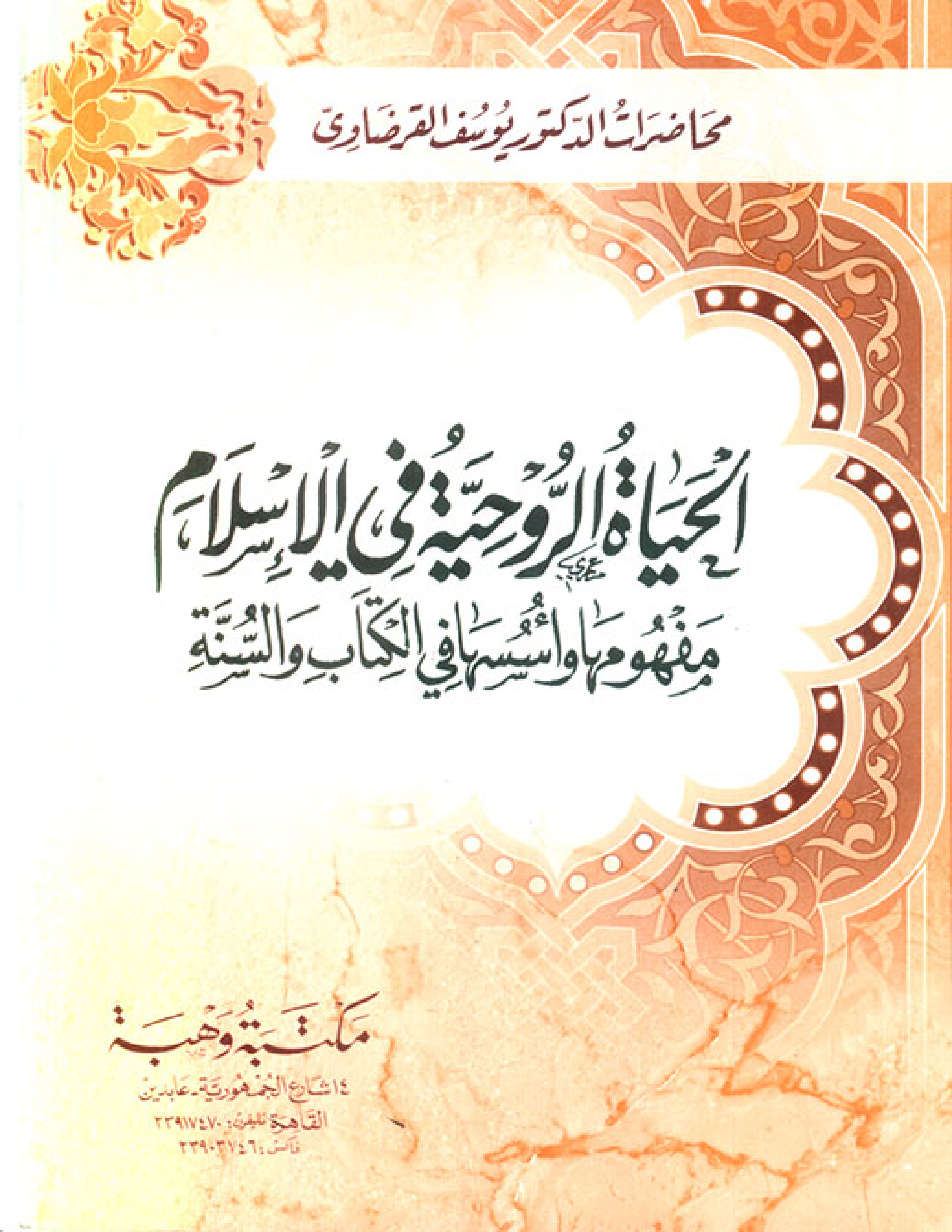
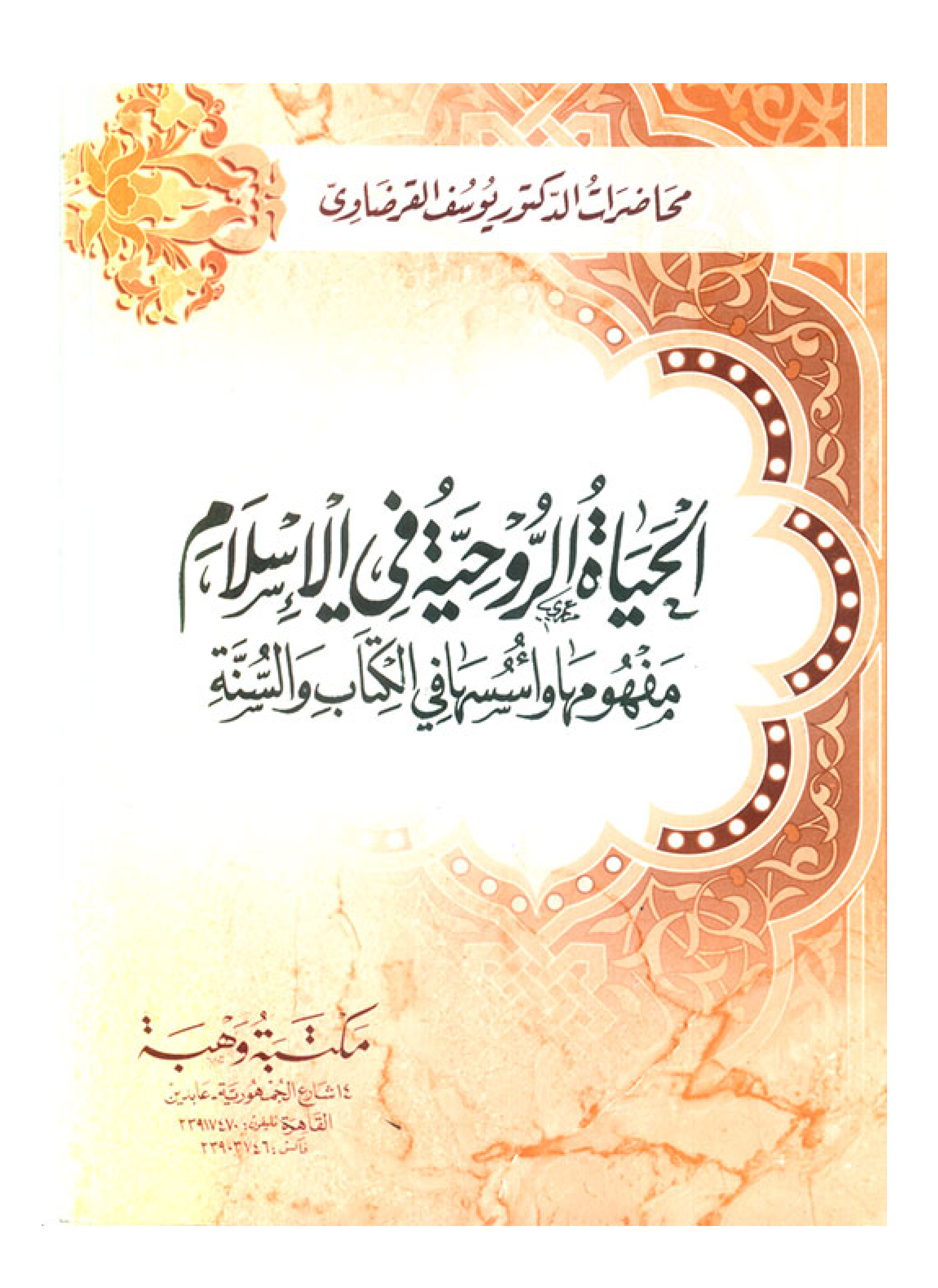

محاضرات الدكتور يوسف القرضاوي
الحياة الروحية في الإسلام
مفهومها وأسسها في الكتاب والسنة
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦


محاضرات الدكتور يوسف القرضاوي
الحياة الروحية في الإسلام
مفهومها وأسسها في الكتاب والسنة
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

الحياة الروحية في الإسلام

مفهومها و أسسها في الكتاب والسنة

تأليف الأمام

يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، رحمةُ الله المهداةُ للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصَحْبه ، ومَن دعا بدعوته ، واهتدى بسنته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

(الكهف:10).

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(آل عمران:8).

اللهم انفعنا بما علَّمتنا ، وعلِّمنا ما ينفعنا ، وزدنا علمنا ، نحمدك اللهم على كلِّ حال ، ونعوذ بك من حال أهل النار .

خير ما أحييكم به أيها الإخوة والأخوات ، تحية الإسلام ، وتحية الإسلام السلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(وبعد)

فحديثي إليكم ، كما طلب إليَّ الإخوة (1) ، عن مفهوم الحياة الروحية ، وأُسُسها في ضوء القرآن والسنة ، الحياة الروحية .

ما معنى الحياة الروحية ؟

وهنا نسأل عن معنى هذه الكلمة (الحياة الروحية)

ربما أنكر بعض الإخوة هذا العنوان .

قال بعضهم : هذه ترجمة لمعنى أجنبي . وقال بعضهم : إن هذا مصطلح لم يعرفه الإسلام من قبل ، ولم نره في تراثنا العريق.

ولكني لن أقف طويلا عند هذا ، ما دمنا قادرين على أن نحدِّد المراد من معنى الحياة الروحية ، فلا مُشاحَّة في الاصطلاح ، ولا يضرُّنا الأسماء متى وضحت المُسمَّيات .

الحياة الروحية قطعا لا يُراد بها ما يُطلَق عند القوم ، مثل الروحية الحديثة ، التي عُرفت في الغرب ، ونقلها بعضهم إلى الشرق الإسلامي ، وهي تلك التي تعتمد على ما يزعمون من تحضير الأرواح ومخاطبتها ، وهي كما قال الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله ، في رسالة له : دعوة هدَّامة ولا شك ، ولها صلة بالصهيونية العالمية(2). فهذا لا علاقة لنا به .

إنما نريد بالحياة الروحية : ما يقابل الحياة المادية ، التي زحفت على العالم اليوم ، والتي شغلت الناس في دنيا الغرب ، وسرت عدواها إلى الشرق . وهي التي سحرت العقول والقلوب ، وسخَّرت الأبدان والجوارح لخدمتها .

الحياة المادية التي لا تهتمُّ إلا بالمادة ، وتُنكر ما وراء الطبيعة ، تُنكر أن لهذا الكون ربًّا خلقه ، وأعطى كلَّ شيء خلقه ثم هدى ، ولا زال يدبِّر أمره ، وتُنكر أن في الإنسان رُوحا تميُّزه عن سائر الحيوانات ، فهو مجرَّد حيوان متطوِّر ، وتنكر أن وراء هذه الحياة القصيرة الفانية حياة أخرى ، تُوفَّى فيها كلُّ نفس ما كسبت ، وتحصد ما زرعت ، وتُخلَّد فيما عملت ، هذه أُسُس الحياة المادية كما هي عند غيرنا .

أسس الحياة الروحية فـي الإسلام

وإذن الحياة الروحية ، هي التي تقوم على نقيض هذا ، فهي تقوم على أُسُس اعتقادية ، وتقوم على أُسُس علمية ، وعلى أُسُس عملية ، وعلى أُسُس وجْدانية وعاطفية ، هذه هي الحياة الروحية في الإسلام .

الأسس الاعتقادية للحياة الروحية

الحياة الروحية في الإسلام تقوم على عدة أسس اعتقادية

الأساس الاعتقادي الأول : التوحيد (الإيمان بالله)

تقوم أول ما تقوم ، على الإيمان بالله تبارك وتعالى ، على أن لهذا الكون ربًّا ، الإيمان بالله بارئ الكون ، وخالق الإنسان ، وواهب الحياة ، هذا هو أصل الحياة الروحية ، الإيمان بالله تبارك وتعالى ، الإيمان بالله الواحد ، الذي تدل عليه الفطرة السليمة ، والعقل الرشيد ، ومن أنكره وقت الرخاء أعترف به وقت الشدة .

لقد فكَّر الناس على اختلاف مستوياتهم ، واختلاف ألسنتهم ، واختلاف بلدانهم ، في هذه (القوة العليا) أو (الذات الإلهية) التي يشعرون بها في أعماقهم ، يتجَّهون إليها في أشد الأوقات ، ويمدُّون إليها أيديهم داعين ومتضرِّعين في المحن والشدائد ، ويسألونها ما تعجز عنه قواهم الظاهرة ، وإمكاناتهم المعتادة ، فكثيرا ما تستجيب لهم ، وتلبِّى مطالبهم ، وتقضي حاجاتهم ، ثم سرعان ما ينسَونها ، وينشغلون عنها ، إذا واتتهم العافية بعد البلاء ، والسرَّاء بعد الضرَّاء ، وهو الذي صوَّره القرآن تصويرا بليغا دقيقا من حياة الإنسان في الشدَّة والرخاء ، والبأساء والنعماء ، بقوله تعالى :(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [22] فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ۖ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [23] إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس:22-24) ، إن بعض المؤمنين يشعرون أن وجود الله تعالى ليس في حاجة إلي دليل يثبته ، بل يحسبون أن وجوده تعالى أظهر من كلِّ حقيقة ، ويقولون مناجين له : كيف يستدلُّون عليك بما هو في وجوده محتاج إليك؟

التوحيد هو أساس الحياة الروحية ، أن تعتقد أنه لا ربَّ إلا الله ، وهذا ما يسمُّونه توحيد الربوبية .

وأن لا تعبد إلا الله ، لا تتَّجه بعقلك ولا بقلبك ولا بعبادتك إلا إلى الله تبارك وتعالى ، وهذا ما يسمُّونه توحيد العبادة ، أو توحيد الألوهية ، أن تُفرد الله بالعبادة والاستعانة ، وهذه هي حقيقة التوحيد التي أكَّدها القرآن ، وغرسها الإسلام في نفس المسلم ، حينما فرض عليه أن يقول كلَّ يوم تاليا ، ما لا يقل عن سبع عشرة مرة ،) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:5).

هذا هو مبدأ الحياة الروحية ، التوحيد ، أن لا تشرك بالله أحدا ، ولا تشرك بالله شيئا . وهذا هو ما كان يدعو إليه النبي * ، أمراء الأرض وملوكها وأباطرتها من أهل الكتاب ، حين يدعوهم أن يُسلِموا ليَسلَموا ، ثم يختم رسائله إليهم ، بهذه الآية :) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍبَيْنَنَاوَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران:64) (3)، التوحيد ، الإيمان ، هو أصل الحياة الروحية .

الأساس الاعتقادي الثاني : الإيمان بالآخرة

ثم يأتي الأصل الثاني ، وهو الإيمان بالآخرة ، اليقين بالآخرة ، كما وصف الله المتقين والمحسنين في كتابه ، بأنهم بالآخرة هم يوقنون ، فقال في وصف المتقين :(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ((البقرة:4)، وقال في وصف المحسنين : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (لقمان:4)، اليقين بالآخرة : أن المرجع إلى الله ، أن الموت ليس نهاية المطاف ولا ختام القصة ، وأن الأمر ليس كما قال الدهريون من قبل : إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر .

أهذه هي قصة الحياة؟! يسرق السارق ، وينهب الناهب ، ويظلم الظالم ، ويقتل القاتل ، ويطغى الجبَّار ، ويغتال القوي الضعيف ، ثم ينهدم سُرَادِق الحياة ولا يأخذ الإنسان حقَّه ؟ ! ولا يدرك المحسن جزاء إحسانه؟! ولا تنال المجرمَ يدُ العدالة؟! لا بد من دار يأخذ كلُّ امرئ فيها جزاءه ، وصدق الله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ((ص:27،28)، هذا هو الباطل الذيتنزَّهالله عنه ، وهذا هو العبث الذي لا يُقبل في حقِّ الألوهية ، (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون:115،116).

هذا هو الأصل الثاني ، اليقين بالآخرة ، أن هذه الدار ليست كلَّ شيء ، وأن الموت ما هو إلا نُقْلة إلى دار أخرى ، كما قال عمر ابن عبد العزيز : إنكم خُلِقتم للأبد ، وإنما تُنقَلون بالموت من دار إلى دار+(4).

وكما قال الشاعر الصالح(5) :

وما الموت إلا رحلة غير أنـها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

الموت ليس فناء صِرْفا ، وليس عدما محضا ، ولو كان عدما محضا لم يُخْلق . وقد سمعنا الله تعالى يقول : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ □) (الملك:2)، هذا هو الأصل الثاني .

الأساس الاعتقادي الثالث : الإيمان بالغيب

والأصل الثالث هو الإيمان بالغيب عموما ، الإيمان بالغيب ، أن وراء هذا العالم المنظور عالما غير منظور ، غير محسوس ، ليست المُحسَّات هي كلَّ شيء ، كلا ، إن عالمنا المادي كما أثبت العلم الحديث لا نرى فيه إلا ثلاثة في المائة ، وسبعة وتسعون لا تُبْصَر ولا تُرَى ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) (الحاقة:38،39)، وما لا نبصره أكثر بكثير مما نبصره ، الأعماق السوداء في هذا الكون لا نعرفها ، إذا كنا لا نعرف هذا العالم المادي ، فما بالكم بعوالم أُخَر ، لا نعرف عنها شيئا . هناك الغيْبيَّات .

الماديون أصحاب طفولة إنسانية

الماديون الغارقون في الحياة المادية ينكرون الغيبيات ، ويُسمُّون المؤمنين ، أصحاب العقلية الغيبية ! سخرية منهم . والواقع أن الذين يقفون عند حدود المُحسَّات ، إنما هم أصحاب طفولة إنسانية ، الطفل هو الذي يقف عند الحسِّ ، ولا يعرف إلا ما يقع عليه سمعه وبصره ، وما تدركه حواسه ، فإذا رشد أدرك أن وراء الماديات معنويات ، وأن وراء المحسوسات معقولات ، فهؤلاء لم يبلغوا الرشد بعد .

هناك غيب لا بد من الإيمان به ، ومن هذا الغيب الذي لا بد من الإيمان به ، أن نؤمن أن لله ملائكة ، وأن لله وحيا ، وأن لله كتبا ، وأن لله رسلا ، الله قادر على أن يُسمِعهم ، وأن يُكلِّمهم ، حتى يُبلِّغوا رسالته إلى الناس . إن الذين ينكرون الوحي ، ينكرون قدرة الله على أن يكلِّم الإنسان ، وينكرون موهبة الإنسان ، بأنه قادر بما وهبه الله ، أن يتَّصل بالسماء ، وأن يسمع من الله ، أو من ملائكة الله . إن المسلم لا يصح إسلامه ما لم يؤمن بكلِّ كتاب أنزل ، وبكلِّ نبي أرسل ، كما قال تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ((البقرة 285).

الإيمان بحقيقة الروح الإنساني

ومن هذا الإيمان بالغيب : الإيمان بالرُّوح الإنساني ، أن الإنسان ليس هو هذا الغلاف الطيني ، الإنسان في حقيقته هو ذلك الكائن الواعي داخله ، هو تلك النفحة الربانية التي أشار إليها القرآن في خلق آدم ، فقد خلق الله آدم من طين ، أو من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، ولكن هذا هو الغلاف ، هذا هو البيت ، فما الذي يسكن هذا البيت؟ ما الذي يعيش داخل هذا الغلاف؟ إنه ذلك الشيء الذي يُشير إليه قوله تعالى :(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ((الحجر:29).

من هنا خلق الإنسان خلقا مزدوجا ، فيه عنصر أرضي ، وفيه عنصر سماوي ، فيه عنصر يشدُّه إلى الطين ، إلى أسفل ، وفيه عنصر رباني من الملأ الأعلى ، يجذبه إلى الأفق الأعلى ، وهو في صراع بين هذين العنصرين . والإسلام يسعى إلى أن يوازن بين هذين العنصرين ، ولا يريد أن يطغى أحدهما على الآخر ، فلا بد للطين أن يأخذ حقَّه ، ومن هنا يعمر الإنسان الأرض ، ويأكل من طيّباتها ، ولا بد للعنصر الرُّوحي ، أو العنصر الرباني أن يأخذ حقَّه ، ومن هنا كُلِّف الإنسان عبادة الله ، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ((الذاريات:56)، وهذا هو التوازن الذي جاء به الإسلام .

هذه هي الأُسُس الاعتقادية الثلاثة ، التي تُبنى عليها الحياة الروحية : الإيمان بالله ، الإيمان بالآخرة ، الإيمان بالغيب .

الأساس العلمي للحياة الروحية

ثم هناك أساس علمي للحياة الروحية في الإسلام ، الحياة الروحية في الإسلام لا بد أن تقوم على العلم ، الذين يزعمون أنهم قادرون على أن يتقرَّبوا إلى الله بدون أن يتعلَّموا ، هؤلاء خالفوا القرآن ، وخالفوا السنة ، وخالفوا كبار المربِّين من رجال التصوُّف الأولين .

في عصور التخلُّف ، في فترة من فترات الضعف والانحطاط وُجد مَن يقول ما حاجتنا إلى العلم ، العلم حجاب بيننا وبين الله ، حتى قال بعضهم : إذا رأيتَ الصوفي يقول : حدَّثنا وأخبرنا . فاغسل يدك منه .

وقيل لبعضهم : تعالَ ندرس مصنَّف عبد الرزاق . فقال : ما حاجتنا إلى عبد الرزَّاق ونحن نأخذ عن الخلاَّق! وقال بعضهم لأهل الحديث : إنكم تأخذون علمكم ميتا عن ميت ، (فلان عن فلان عن فلان ، وكلُّهم أموات) ، ونحن نأخذ علمَنا عن الحيِّ الذي لا يموت (6)! هؤلاء ولا شكَّ مردود عليهم .

وسادة الطائفة الأولون ، كانوا ملتزمين بالكتاب والسنة ، سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد كان يقول : مَن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث فليس منا (7).

علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنة . . . كلُّ الطرق مسدودة ، إلا مَن سار خلف رسول الله * .

وقال أبو سليمان الداراني : إنه لتقع النكتة في قلبي من نُكَت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة (8). هكذا وقفوا أنفسهم عند حدود العلم ، الذي يعرِّفهم ما لهم وما عليهم . لذلك لا بد من العلم .

أهمية العلم

العلم هو الذي يُعَرِّف المسلم التوحيد من الشرك في العقيدة ، والحلال من الحرام في السلوك ، والمقبول من المردود في العمل ، والسنة من البدعة في العبادة .

يَعْرِف به مراتب الأعمال ، الفاضل من المفضول ، حتى لا ينشغل بالمفضول ويَدَع الفاضل ، أو يشتغل بالنافلة ويَدَع الفريضة ، والله لا يقبل النافلة حتى تؤدَّى الفريضة (9). أو يشتغل بفرض الكفاية ويَدَع فرض العين ، أو يشتغل بفرض خاصٍّ به ، ويَدَع فرض عين يتعلَّق بإنقاذ الأمة ، أو يشتغل بفرض كفاية قام به غيره ، ويَدَع فروض كفاية تحتاج مَن يسدُّ ثُغُورها فلا تجد ، وغير ذلك .

العلم هو الذي يقف بالإنسان عند حدود الله ، ولهذا وجدنا إماما مثل حُجَّة الإسلام الإمام الغَزَّالي يبدأ كتابه الإحياء ، موسوعته الإسلامية ، وهو ليس كتابا واحدا في الحقيقة ، إنه أربعون كتابا في كتاب ، يبدأ هذه الكتب الأربعين بكتاب العلم ، وفي آخر كتاب ألَّفه ، وهو كتاب منهاج العابدين ، ذكر فيه عَقَبات في طريق السائر إلى الله ، فجعل العقبة الأولى عقبة العلم ، يجب أن يجتازها .

ومن هنا نقول : إن الحياة الروحية ، أو الحياة الربانية ، أو الحياة الإيمانية ، التي يرسمها الإسلام لا بد أن تقوم على العلم ، العلم المأخوذ من القرآن والسنة الصحيحة ، هذا هو العلم ، ولا علم بعد ذلك ، إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وكما قال الإمام مالك إمام دار الهجرة ، وهو في المسجد النبوي يشير إلى قبر النبي * ويقول : كلُّ أحد يُؤخذ منه ويُرَد عليه ، إلا صاحب هذا القبر . هذا هو الأساس العلمي .

الأُسُس العملية للحياة الروحية

ثم تأتي أُسُس عملية ، الأُسُس العملية بعضها إيجابي وبعضها سلبي ، بعضها فعل وبعضها ترك .

الأساس العملي الأول : التعبد

فأول الأُسُس العملية ، التعبُّد ، التنسُّك ، أن تعبد الله تبارك وتعالى ، بل هذه هي المهمة الأولى للإنسان ، وأيُّ مسلم لم يقرأ قول الله تبارك وتعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (الذاريات:56-58)؟

خُلق الإنسان لعبادة الله ، إذا كانت المخلوقات خُلِقَت للإنسان وسُخِّرت له ، كما قال الله تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية:13)، فإن الإنسان خُلِق لله ، خُلِق لعبادة الله .

والعبادة في الإسلام أُفُق واسع ، تبدأ بإقامة الشعائر ، بأداء الفرائض ، أو الأركان التي بُنِيَ عليها الإسلام : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، هذه هي الفرائض . ثم يأتي بعد ذلك النوافل ، التي أشار إليها الحديث القدسي ، =ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه+ (10)، فالفرائض توصِّل الإنسان إلى منزلة القرب من الله تعالى ، والنوافل تنتهي به إلى منزلة الحبِّ من الله تبارك وتعالى ، الفرائض والنوافل . المسلم لا بد أن يؤدِّي فرائض الله ، ولا يهمل نوافله ، يكمِّل الفرائض بالنوافل ، فتكون رصيدا له عند الله تبارك وتعالى ، يُكمِّل بها ما يَنقُص من الفرائض ، ويُقاوم بها ما عنده من سيئات .

وليس المهم في العبادة شكلها ورسمها ، إنما المهم في العبادة رُوحها ، إن الله وصف المنافقين بقوله :(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) (التوبة:54)، هميصلُّون،ولكنهاصلاة بلا رُوح ، لا يذهب إليها إلا مُتَثَاقِلا ، (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَاللَّهَ إِلَّا قَلِيلً) (النساء:142)، ولعل هؤلاء أفضل من كثير من مُنَافقي عصرنا ، الذين لا يَأتون الصلاة كُسالى ولا غير كُسالى .

المسلم يصلي صلاة الخاشعين ، إن الله لم يكتب الفلاح بمجرَّد الصلاة ، إنما كتبها للذين هم في صلاتهم خاشعون ، كما قال تبارك وتعالى :(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ((المؤمنون:2،1)، ولم يأتِ في القرآن ولا في السنة (صَلِّ) ، وإنما ورد : (اتْلُ مَا أُوحِيَإِلَيْكَمِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَۖإِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗوَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗوَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) (العنكبوت:45)، وأيضا :) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (البقرة:43).

وإقامة الصلاة : أن تُؤدَّى مُستوِيَة قائمة مُعتدلة ، على وجهها الصحيح ، كان النبي * يقول : = قُرَّةُ عيني في الصلاة+(11)، وكان إذا حان وقتها قال لبلال مؤذِّنه : =أرحنا بها يا بلال+(12). وما أعظم الفرق بين مَن يؤدِّي الصلاة ليستريح بها ، ومَن يؤدِّيها ليستريح منها!

ما أعظم الفرق بين مَن تكون قُرَّةُ عينه في الدخول في الصلاة ، ومن قُرَّةُ عينه الخروج من الصلاة .

ما أعظم الفرق بين صلاة الأمر وصلاة الحب ، =أرحنا بها يا بلال+ .

ليس المقصود من العبادة أن تُؤدّي شكلها وتفقد روحها . إنَّ الصلاة المطلوبة هي التي تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ، كما قال الله تعالى : (تْلُ مَا أُوحِيَإِلَيْكَمِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖإِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗوَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗوَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(العنكبوت:45) ،وإنَّالزكاة المطلوبة هي التي تُطهِّر صاحبها وتُزَكِّيه ، كما قال الله : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖإِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۗوَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ((التوبة:103)، وإنَّ الصيام المطلوب ،(هو الذي يثمر التقوى ،يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:183) ، ولهذا جاء في الحديث : =ربَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، وربَّ قائم حظه من قيامه السهر+(13)، وفي صحيح البخاري : =مَن لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يَدَع طعامه وشرابه+(14).

استمرار التعبد وشموله :

التعبُّد لله تبارك وتعالى أول الأُسُس العملية ، والتعبُّد في الإسلام ليس كالتعبُّد في أيِّ دين ، إنه تعبُّد مستمر ، بعض الأديان يتعبَّد الإنسان لربِّه يوما واحدا في الأسبوع ، أو ساعة من يوم ، ثم ينصرف عنه طوال الأسبوع ، أما المسلم فهو على موعد مع ربِّه باستمرار ، كما يحتاج إلى الوجبات المادية لغذاء بطنه مرَّات كلَّ يوم ، فإنه يحتاج إلى الوجبات الروحية لغذاء قلبه ، ولهذا شُرِعَت الصلوات خمس مرَّات في اليوم ، وظلَّ المسلم مطالبا بهذا إلى أن يُوافِيَه الأجل ، لا يسقط عنه التكليف كما زعم مَن زعم ، بل قال الله تعالى لنبيه الكريم * : (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَالْيَقِينُ((الحجر:99)، واليقين هو الموت . التعبُّد لله تعالى ، ما دام الإنسان حيًّا يفهم الخطاب .

الذكر والدعاء :

ومن التعبُّد الذكر ، أيْ ذكر الله ، كما قال تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (الأحزاب:42،41)، والذكر ذِكْرَان ، ذكر القلب ، وذكر اللسان ، ولا بد أن يواطئ أحدهما الآخر . والذكر كذلك نوعان ، ذكر ثناء ، وذكر دعاء ، ذكر الثناء مثل:=أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر+(15)، ومثل ما ورد في الحديث الذي ختم به الإمام البخاري جامعه الصحيح : =كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم+(16). هذا هو ذكر الثناء .

وهناك ذكر الدعاء ، أن تسأل الله حاجتك ، والله يحبُّ من الإنسان أن يسأله حاجته ، حتى شسع نعله ، الله تعالى يقول :) وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚلِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ۖوَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ۚوَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍعَلِيمًا) (النساء:32)، ويقول : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚإِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر:60)، وليس بينك وبين الله حجاب ، وصدق الله : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖأُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖفَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة:186).

وقد يجمع المؤمن بين ذكر الدعاء وذكر الثناء ، كما في سورة الفاتحة ، أولها ثناء ، وآخرها دعاء لله ، وكما جاء في ذكر أولي الألباب ، في آخر سورة آل عمران ، حيث يقول الله تبارك وتعالى : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران:191) ، فقوله : (ثناء) ، وقوله : • (دعاء) .

ثم ذكرت السورة جملة من أدعية أولي الألباب : (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (آل عمران:193،194) .

وقد يأتي الدعاء في صيغة ثناء ، أدبا مع الله تبارك وتعالى ، كما رأينا في نداء أيوب عليه السلام لربّه ،(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأنبياء:83) ، لم يقل له : اشفني . وإنما عرض حاله وترك سؤاله ، فهذا دعاء في صيغة ثناء .

وكذلك ذو النون عليه السلام ، حينما نادى ربَّه في بطن الحوت : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (الأنبياء:87)، فهو ذكر يجمع بين التوحيد والتنزيه والاعتراف ، فقوله : توحيد . وقوله : تنزيه . وقوله : ، اعتراف .

وليس هناك دين عمل على ترطيب اللسان وعمارة القلب بذكر الله كالإسلام ، إنه يصحب الإنسان في رحلة حياته كلِّها ، في كلِّ عمل هناك ذكر لله تبارك وتعالى في كلِّ حال ، هناك أذكار الصباح وأذكار المساء ، وأذكار اليوم والليلة ، الذكر عند الأكل (17) ، وعند الشرب (18)، وعند لبس الثياب (19)، وعند الدخول (20)، وعند الخروج (21)، وعند السفر وعند الأوبة (22)، وعند الركوب ، وعند النزول (23)، وعند النوم وعند اليقظة (24)، حتى عند الصلة الجنسية ، يقول المسلم : =بسم الله ، اللهم جنّبنا الشيطان ، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا+(25).

وكان النبي * ، أكثر الناس ذكرا لله تبارك وتعالى ، يذكر الله في كلِّ أحيانه ، وعلى كلِّ أحواله ، وعلى المسلم أن يعنى بحفظ الأذكار القرآنية ، والأذكار النبوية ، فليس هناك أبلغ منها ، ولا أشد تأثيرا في القلب منها ، فهي تجمع بين جمال اللفظ وكمال المعنى ، وقد ألَّف شيخنا الغزالي في ذلك كتابه الممتع : (فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء) ، وفي هذه الأدعية أُلِّفت كتب ، مثل كتاب الإمام النسائي (عمل اليوم والليلة) ، وكتاب الإمام النووي (الأذكار) ، وكتاب الإمام ابن تيمية (الكلم الطيب) ، وكتاب الإمام ابن القيم (الوابل الصيب) ، وكتاب الإمام ابن الجزري (الحصن الحصين) ، وشرحه للإمام الشوكاني (تحفة الذاكرين) ، وهكذا أُلِّفت كتب في الأذكار التي تُقال عند كلِّ مناسبة .

والمسلم حين يدعو بالأدعية المأثورة له أجران : أجر الدعاء في نفسه ، وأجر الاتباع ، بخلاف الأوراد التي يؤلفها البشر .

النية الصالحة تجعل العادة عبادة :

يمتدُّ التعبُّد في الإسلام ، حتى يشمل كلَّ عمل مشروع تصحُّ فيه النية ، حتى الأعمال الدنيوية ، حتى سعيك على معاشك في زراعة أو صناعة أو تجارة أو إدارة ، أو طلب للعلم ، وغير ذلك ، يصبح كلُّ ذلك عبادة وقُربة إلى الله تبارك وتعالى بالنيَّة ، بالنية تنقلب العادات إلى عبادات ، وتصير المباحات قُرُبَات ، وهذا من عجائب ما جاء به الإسلام ، ولهذا يستطيع المسلم أن يعيش في عبادة دائمة ، وأن تصبح الدنيا كلُّها محرابا كبيرا ومسجدا له ، وهو يمارس عمله الدنيوي اليومي ، بل حتى في أداء الشهوة ، كما جاء في صحيح مسلم : عن أبي ذر ، أن ناسا من أصحاب النبي * قالوا للنبي * : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلُّون كما نصلِّي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدَّقون بفضول أموالهم . قال : =أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكلِّ تسبيحة صدقة ، وكلِّ تكبيرة صدقة ، وكلِّ تحميدة صدقة ، وكلِّ تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بُضع أحدكم صدقة+ . قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر؟ قال : =أرأيتم لو وضعها في حرام ، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال ، كان له أجر+. وعند أحمد : =أفتحتسبون بالشرِّ ولا تحتسبون بالخير+(26).

الأساس العملى الثاني : الإحسان إلى الخلق

ثم هناك بعد التعبُّد لله ، الإحسان إلى الخَلْق ، لا أقول إلى الناس فقط ، بل الإحسان إلى الخَلْق ، الإحسان الذي جاء به الإسلام لا يقف عند حدود المسلمين وحدهم ، الإحسان يشمل المسلم وغير المسلم ، ما داموا غير محاربين ولا معادين للإسلام ، كما قال الله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة:8)،

ووصف الله الأبــرار بقولــه : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا [8] إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (الإنسان:8،9)، وكان الأسير من المشركين . جاء الإسلام بالإحسان إلى الناس جميعا ، ما داموا غير محاربين ، ولا معادين للإسلام ، ولا لأمَّته .

بل جاء الإسلام بالإحسان إلى الخلق جميعا ، الإنسان والحيوان ، فإن رسالة النبي * ـ بأبي هو وأمي ـ رحمة للعالمين ، فلا عجب أن يقتبس المسلم من هذه الرحمة للخلق جميعا ، فيرحم المخلوقات ، يرحم البهائم العجماوات في زرائبها ، يرحم الطير في أوكارها ، ويرحم الحشرات في أماكنها ، المسلم يرحم كلَّ شيء رحمة عامة ، ولهذا جاء في الصحيح : =دخلت امرأة النار في هرَّة ربطتها ، فلم تُطعمها ولم تَدَعْها تأكل من خشاش الأرض+ (27). على حين : =أن امرأة بغيًّا رأت كلبا في يوم حارٍ يُطِيف ببئر ، قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغُفِرَ لها+ (28).

الإحسان إلى البشرية ، هذا من عمل المسلم ، المسلم يحمل قلبا كبيرا يسع البشرية كلَّها ، ويسع الخلق جميعا ، كما قال الإمام ابن تيمية : (إن الدين يدور على محورين : تقوى الله ، والشفقة على خلق الله) (29). أي الإحسان إلى خلق الله ، وإلى هذا يشير قول الله تعالى ، في آخر سورة النحل : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (النحل:128)، فهم مع الله بالتقوى ، ومع خلقه بالإحسان .

علاقة التصوف بالخُـلُق

ومن الإحسان : حُسْن الخُلُق مع الناس ، حتى إن بعض كبار الصوفية الأقدمين ، أبو بكر الكتاني قال : التصوف هو خُلُق ، فمن زاد عليك في الخُلُق ، فقد زاد عليك في التصوف (30). وعلَّق الإمام ابن القيم على ذلك فقال : بل الدين كلُّه خُلُق ، فمن زاد عليك في الخُلُق ، زاد عليك في الدين (31).

ولا عجب فقد روى الحاكم وصححه ، عن النبي * ، أنه قال : =إنما بعثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق+ (32). وحينما أثنى الله تبارك وتعالى على رسوله * ، أثنى عليه بهذا الوصف ، فقال تعـالـى :(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4).

سُئل بعض الصوفية عن التصوف ، ما هو؟ فذكر هاتين الكلمتين ، قال : هو الصدق مع الحقِّ ، والخُلُق مع الخَلْق . أي الصدق مع الله تبارك وتعالى ، وحُسْنُ الخُلُق مع الخَلْق ، هذا هو الإحسان في الجانب الإيجابي ، في جانب الفعل .

الأساس العملي الثالث : الورع

ومن الأُسُس العملية في جانب الترك الـورع ، ويكـون باتقـاء ما لا يحبُّ الله تبارك وتعالى ، وهذا الورع أو الاتقـاء أو التقـوي ـ إن شئتَ أن تُسمِّيَه ـ مراتب ودرجات .

مراتب الورع :

وأول مراتبه : أن يتَّقي المسلم الشرك بالله تعالى ، أن يتجنَّب الشرك أصغره وأكبره ،(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) (النساء:48)

ثم يتَّقي الكبائر ، والكبائر درجات ، فهناك كبائر ، وهناك أكبر الكبائر ، ثم يرتقي فيترك الصغائر ، لا يستصغرها ، فقد جاء في الحديث : =إياكم ومحقَّرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه+ ، وإن رسول الله * ضرب لهن مثلا : =كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سوادا فأجَّجوا نارا وأنضجوا ما قذفوا فيها+(33). عُود بعد عُود ، يؤجج نارًا ، ومعظم النار من مستصغَر الشرر كما قيل ، =إنهنَّ يجتمعن على الرجل حتى يُهْلِكْنَه+ .

ولهذا لما مرض أحد الصالحين من السلف ، زاره بعض أصحابه ، فوجده يبكي ، فقال : يا أبا فلان ، علام تبكي ؟ وما رأينا عليك منكرا ارتكبتَه ، ولا فرضا ضيَّعتَه ؟ فقال : والله ما أبكي على منكر ارتكبتُه ، ولا على فرض ضيعتُه ، ولكن أخشى أن أكون قد أتيتُ ذنبا ، أحْسَبُه هَيِّنا ، وهو عند الله عظيم (34).

ولذلك كان بعض السلف يقول : الذنب الذي لا يُغفر ، هو الذنب الذي يقول فيه صاحبه : ليتَ كلُّ ذنب فعلتُه مثلَ هذا ـ احتقارا واستصغارا ، وفي حديث ابن مسعود ، =إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا+ (35).

اتقاء الشرك ثم اتقاء الكبائر ، ثم اتقاء المحرَّمات ولو كانت صغائر ، ثم يرتقي المسلم فيجتنب الشبهات ، ما اشتبه في حِلِّه وحرمته ، كما في حديث النعمان بن بشير n ، أن النبي * قال : =إن الحلال بيِّن وإنَّ الحرام بيِّن ، وبينهما مُشْتبِهات ، لا يعلمهنَّ كثير من الناس ، فمَن اتَّقى الشُبُهات استبرألدينه وعِرْضه ، ومَن وقع في الشُبُهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لِكلِّ ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مُضغَة ، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ، ألا وهي القلب+(36).

ثم يرتقي فلا يكتفي بترك الشبهات ، بل يترك المكروهات ، سواء كان مكروها تحريميا ، وهو ما كان إلـى الحـرام أقـرب ـ أو كان مكروها تنزيهيا ، وهو ما كان إلى الحلال أقرب ـ يترك

المكروهات ، بل يرتقي حتى يَدَع بعض الحلال ، كما كان بعض السلف يقولون : إنا لندع تسعة أعشار الحلال ، خشية من الوقوع في الحرام (37).

وفي الحديث الذي رواه الترمذي : =لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يَدَع ما لا بأس به حذرا مما به بأس+(38)، هذا هو جانب الورع .

الأساس العملي الرابع : الزهد

ثم هناك بعد الورع الزهد ، وهو أعلى من الورع ، أعلى من الورع أن يزهد الإنسان في الدنيا ، كما جاء في الحديث الذي ذكره الإمام النووي رحمه الله ، في (الأربعين النووية) وحسنه : =ازهد في الدنيا يحبُّك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبَّك الناس+(39).

حقيقة الزهد :

والزهد في الإسلام ليس تركا للدنيا ، ليس تركا للعمل فيها ، بل العمل في الدنيا عبادة ، هو جزء من الخلافة في الأرض ، كما قال الراغب الأصفهاني رحمه الله ، في الذريعة إلى مكارم الشريعة : (إن مقاصد الخالق من المكلفين ثلاثة : الخلافة والعبادة والعمارة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى المقاصد الثلاثة : أشار إلى المقصد الأول وهو الخلافة بقوله :(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:30).

والمقصد الثاني وهو العبادة بقوله : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:56).

وإلى المقصد الثالث وهو العمارة بقوله : (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (هود:61) (40).

فالزهد إذن ليس تركا لعمارة الأرض ، الزهد زهد القلوب ، زهد الإرادة ، أن تكون إرادتك مجتمعة على الآخرة ، أن لا تريد الدنيا في مقابلة إرادة الآخرة ، ولهذا يذكر القرآن صنفين : صنف يريد الدنيا ، وصنف يريد الآخرة ، يقول تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) (الشورى:20)، ويقول :(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا [18] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) (الإسراء:18،19)، هي الإرادة إذن .

ولهذا قال أحد مشايخ الصوفية لأتباعه ، حينما أصاب بعضهم من الدنيا ما أصاب ، وكأنه تَوَجَّس من ذلك ، قال له ولإخوانه : لا تبالوا ، اجعلوها في أيديكم ، ولا تجعلوها في قلوبكم .

المهم أن تعيش في الدنيا ولا تعيش فيك ، أن تملكها ولا تملكك ، أن تستخدمها ولا تستخدمك ، أن تُسخِّرها ولا تُسخِّرك ، أن لا تتَّخذها ربًّا فتتخذك لها عبدا ، هذا هو المهم ، الزهد في الدنيا ، ليس ترك العمل ، وليس ترك الاستمتاع بالطيبات ، فقد عمل الصحابة ، وعمل التابعون ، وعمل سلف الأمة ، حتى صنعوا الحضارة الإسلامية التي جمعت بين الرُّوح والمادة ، وبين العلم والإيمان ، وبين الربانية والإنسانية ، الحضارة المتوازنة ، لو تركوا العمل وتركوا الدنيا ، ما أنشأوا هذه الحضارة.

القرآن الكريم يقول في سورة الجمعة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الجمعة:9،10) ، إذن كانوا قبل الصلاة في بيع وشراء وعمل دنيوي ، وبعد الصلاة انتَشَروا في الأرض ، وابتَغَوْا من فضل الله .

ولذلك حينما رأى عمر جماعة في المسجد قابعين بعد صلاة الجمعة ، نهرهم وعلاهم بدِرَّته ، وقال : مَن أنتم؟ قالوا : نحن متوكِّلون . قال : بل أنتم متأكِّلون . ثم قال قولته المشهورة : لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني . وقد علم أن السماء لا تُمطر ذهبا ولا فضة ، إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض ، أما سمعتم الله يقول : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الجمعة:10). وأخرجهم من المسجد (41).

الزهد لا يعني ترك العمل ، كيف والنبي * يقول : =إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فَسِيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرِسَها فليغْرِسْها+(42). انظروا إلى تكريم العمل لذات العمل ، المسلم منتج ، معطاء للحياة حتى آخر رمق ، لماذا يغرس هذه النخلة الصغيرة أو الشتلة أو الفسيلة؟ إنه لن يأكل منها ، ولن يأكل منها أحد من بعده ، كما قال مَن قال : زرع لنا من قبلنا فأكلنا ، ونزرع ليأكل مَن بعدنا . لن يأكل منها فالساعة قائمة ، إنما هنا إشارة إلى أنه يجب أن يظلَّ عاملا مُنْتِجا ، وإن لم يأكل منها هو أو أحد بعده ، =فليغرسْها+ ، هذا هو الإسلام .

الزهد إذن ليس هو ذلك الزهد الأعجمي ، الذي انتقل إلى المسلمين من المذاهب النُسُكية ، والمذاهب الزهدية والتقشفية ، من مثل مانوية فارس ، أو برهمية الهند ، أو رهبانية النصارى ، لا ، ليس هناك اعتزال للحياة .

الزهد : إيثار الآخرة على الدنيا . وصدق الله : (فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات:37-41)، المهم أن لا يُؤثِر الدنيا على الآخرة ، أن لا تكون الدنيا أكبر همّه ، ومبلغَ علمه ، ولذلك ذمَّ الله قوما بقوله :(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى) (النجم:29،30)، وكان من دعاء النبي * ، كما يقول عبد الله بن عمر n : =اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغ علمنا+ (43). هذا هو الزهد .

هذه هي الأُسُس العملية للحياة الروحية ، سواء في جانبها الفعلي ، أو الجانب التركي .

الأُسُس القلبية أو الوِجْدانية للحياة الروحية

ثم هنـاك أُسُس قلبية أي وِجْدانية وعاطفيـة وإراديـة ، وهـي ما يسمِّيه الصوفية بـ(الأحوال) أو (المَقَامات) أو (المنازل)، ولا أريد أن أخوض في بحار هذه المصطلحات ، واختلاف الناس فيها ، فمنهجي حتى في كتبي الفقهية : تجنُّب وُعُورة المصطلحات ، والابتعاد عنها إلى السهولة والبساطة . لا داعي لاستعمال هذه المصطلحات التي يشقُّ على الناس فَهمها . نحن أمام أشياء جاء بها الإسلام ، مثل الأشياء التي ذكرها الإمام الغزالي ، في الربع الأخير من كتابه (الإحياء) ، والتي سمَّاها (المُنجِيات) ، أي الأخلاق المُنجِيات : كالتوبة والإخلاص ، والورع والزهد ، والتوكل على الله ، والمحبَّة والأُنس بالله ، والرضا ، والتفكُّر والتدبُّر ، والشكر والصبر ، والخوف والرجاء ، وذكر الموت والآخرة ، إلى آخر هذه المعاني ، التي لا بد منها ، إذا أردنا أن نحيا حياة إيمانية ربانية . وكل هذه المعاني تُكوِّن أُسسا وجدانية للحياة الربانية أو الروحية . وسأكتفي في هذا المقام بأسس ثلاثة : أولهما : الإخلاص لله ، والثاني : حب الله ، والثالث : الخوف والرجاء .

الأساس القلبي أو الوجداني الأول : الإخلاص

الإخلاص قبل كلِّ شيء ، لا قيمة للعمل إذا لم يصحبه الإخلاص ، الله تعالى يقول : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) (البينة:5)، ومن هنا كانت قيمة النية والباعث على الفعل في الإسلام ، =إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلِّامرئ ما نوى ، فمَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه+(44).

قد يُثاب الإنسان على العمل وهو لم يعمله ، كما قال الله تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)(النساء:100)

وقد يعمل الإنسان العمل ناقصا فتكمِّله له نيَّته ، كالذي تصدَّق على سارق وعلى زانية وعلى غني ، فلم يضع عملُه سُدى ، كما في صحيح البخاري (45).

النية لها أهميتها ، وتتجلَّى في إخلاص العمل لله تبارك وتعالى ، كما يقول ابن عطاء في حكمه : الأعمال صور قائمة ، ورُّوحها وجود سرِّ الإخلاص فيها (46). العمل بلا إخلاص تمثال بلا رُوح ، لا حياة فيه ، جثَّة هامدة ، الإخلاص لله تبارك وتعالى ، هو ما كان يعني الصالحين قديما ، فقد كان يعمل أحدهم ما يعمل من الصالحات ، ثم يقول : وما يدريني أن هذا قد قبله الله مني ، والله تعالى يقول : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (المائدة:27) (47). والتقوى هاهنا ، أي في الصدر ، كما ورد بذلك الحديث (48). إنه يخشى على عمله أن يكون قد دخله الرياء أو العجب أو الغرور ، فيُفسده ويُدمِّره .

ورحم الله ابن عطاء الله السكندري حينما قال أيضا : (ربَّما فتح الله لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب ، فكان سببا في الوصول ، معصيةٌ أورثت ذُلا وانكسارا ، خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا واستكبارا) .

وقال أيضا : (إن الله لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك ؛ العمل المشترك هو لا يقبله ، والعمل المشترك هو لا يقبل عليه) (49).

قد يهلك الإنسان بسبب طاعة لم يتوفَّر فيها الإخلاص ، ولم يدُم معها الإخلاص ، ولهذا جاء في القرآن الكريم :)يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ((البقرة:264)، وجاء في الحديث ، أن أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة الثلاثة المعروفون ، المجاهد الذي قاتل واستشهد ، والعالم الذي عَلِم وعلَّم ، والجَوَاد الذي أنفق ماله للناس ، ولكن كان عملهم كله في غير إخلاص . فعلوا ذلك رياء ، فعل الأول ذلك ليقول الناس : هو شجاع . وفعل الثاني ليقول الناس : هو عالم . وفعل الثالث ليقول

الناس : هو جواد سخي . وقد قيل ، فلا عجب أن يقال لكلٍّ منهم : اذهب فخذ أجرك من الناس . وهم أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة .

وهذا ما بيَّنه حديث مسلم ، عن أبي هريرة ، عن النبي * أنه قال : =إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه : رجل استُشهِد فأُتِي به فعرَّفه نعَمَه فعرَفها قال فما عملتَ فيها؟ قال قاتلتُ فيك حتى استُشهِدتُ ، قال كذبتَ ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال : جَرِيء . فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار ، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقَرأ القرآن ، فأُتِي به فعرَّفه نِعَمَه فعَرَفها ، قال فما عملتَ فيها؟ قال : تعلَّمتُ العلم وعلَّمْتُه ، وقرأتُ فيك القرآن . قال : كذبتَ ، ولكنك تعلَّمتَ العلم ليقال : عالم . وقرأتَ القرآن ليقال : هو قارئ . فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار ، ورجل وسَّع اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتِي به فعرَّفه نعَمَه فعَرفَها قال : فما عملتَ فيها؟ قال : ما تركتُ من سبيل تُحِب أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك . قال : كذبتَ ، ولكنك فعلتَ ليقال : هو جَوَّاد . فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِي في النار+(50).

الله تعالى لا يُغش ولا يُخدع ، ولا تروج عنده عملة زائفة ، بل يردها على صاحبها .

فالأمر خطير إذن ، الإخلاص هو أهم ما يجب أن يحرص عليه مَن يريد أن يحيا حياة رُوحية ربَّانية إيمانية إسلامية .

الأساس القلبي أو الوجداني الثاني : حب الله

والأساس الثاني من الأسس الوجدانية القلبية ، للحياة الروحية عند المسلم : حبُّ الله . وكلمة (الحبِّ) لا تحتاج إلى تفسير ، وإن حاول بعض المتكلِّمين أن يصرفوها عن معناها الحقيقي إلى معنى مجازي ، ظنًّا منهم أن هذا المعنى لا يليق بكمال الله تعالى . والواقع أنه لا حاجة إلى ذلك ، فكلُّ شيء يحَبُّ بحسبه ، فحبُّ المرأة ، غير حبِّ الطعام ، غير حبِّ المال ، غير حبِّ الشهرة .

وحب الله تعالى : تعلُّق القلب به تعلُّقا يجعله موصولا به ، ذاكرا له ، هائما به ، مشتاقا إليه ، راغبا في قربه ، متطلِّعا إلى لقائه ، ممتثلا لأمره ، مجتنبا لنهيه . فأصل الحبِّ عاطفي ، وثمرته عملية .

أسباب حب الله :

ولماذا يحبُّ المسلم الله جلَّ جلاله؟

1- حب الله لإحسانه :

إنه يحبُّه عزَّ وجلَّ ، حب المرء لكلِّ مَن يحسن إليه ، ويصنع له معروفا ، أو يقدِّم له خدمة ، فهذه طبيعة الإنسان ، حتى قال بعض السلف : اللهم لا تجعل لفاجر علي منَّة ، فيحبُّه قلبي .

فكيف إذا كان كلُّ خير ، وكلُّ إحسان ، وكلُّ نعمة ينعَم بها الإنسان ، إنما هي من الله تعالى ، هو الذي وهبها للإنسان ويسَّرها له ، بطريق أو بآخر ، كما قال عز وجل :) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) (النحل:53) ، (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم:34) ، (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)(لقمان:20). وفي الحديث : =أحبُّوا الله لما يغذوكم بهمن نعمة ، وأحبُّوني لحبِّ الله ، وأحبُّوا أهل بيتي لحبِّي (51).

وكلُّ إنسان ـ بل كلُّ مخلوق ـ لا بد له من نعمتين لكي تستمرَّ حياته ، ووجوده : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد .

فالله هو الذي أوجد الإنسان و)هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) (الإنسان:1)، هو الذي أمدَّه بما يحتاج إليه في حياته ، من العقل والجسم ، والمواهب الرُّوحية ، والإدراكية والوجدانية ، ووهب له وسائل التعلُّم من كتاب الكون المنظور ، ومن كتابالوحي المسطور ، كما قال تعالى :)وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ((النحل:78)، فبالسمع يعرف علوم الوحي ، وبالبصر يعرف علوم الكون القائمة على المشاهدة والتجربة ، وبالفؤاد يعرف العلوم العقلية ، التي تحتاج إلى التأمُّل والتفكُّر في الآفاق وفي الأنفس ، والنظر في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء .

وقد ذكّر القرآن الإنسان بجملة من النعم في سورة الأنعام ، يجدر به أن يستحضرها ولا ينساها ، ويشكرها ولا يكفرها ، وهي خليقة أن تهديه إلى محبَّة الله تعالى .

وكيف لا يحب المرء ربَّه الذي خلقه فسواه فعدله ، وصوَّره فأحسن صورته ، وخلقه في أحسن تقويم ، وكرَّمه أعظم تكريم ، ونفخ فيه من رُوحه ، ونزَّل عليه كتبه ، وبعث له رسله ، ولم يتركه سدى ، ولم يهمل شأنه ، وغمره بالإحسان من قرنه إلى قدمه ، منذ كان جنينا في بطن أمه ، كان يرعاه بعينه التي لا تنام ، وبعد نزوله منه ، أجرى له عرقين في صدر أمه يجريان لبنا خالصا سائغا لرضاعته ، دافئا في الشتاء ، باردا في الصيف ، ولم تزل عناية الله تحوطه وترعاه ، رضيعا ، وفطيما ، وصبيًّا ، ومراهقا ، وشابًّا ، ويافعا ، وكهلا ، وشيخا ، حتى يوافيه الأجل ، كما قال تعالى :) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ((السجدة:6-9)

هذا الإله من شأنه أن يحبَّه المؤمنون ، ويخلصوا في حبِّه ، فهو خالقهم ورازقهم ومدبِّر أمرهم ، والذي لم يكِلهم لحظة واحدة لأنفسهم ، ولو فعل لهلكوا .

وإذا كان الإنسان يحبُّ أبويه ، لأنهما السبب في خلقه ، وهما اللذان رعياه في صغره ، حين لم تكن له سنٌّ تقطع ، ولا يد تبطش ، ولا قدم تسعى ، فإن الله هو الذي خلق أبويه ، وأودع في صدرهما هذا الحنان ، وهذه الرحمة ، فهو أولى أن يحبَّ .

وإذا كان الوثنيون يحبُّون آلهتهم المزعومة ، وهي أصنام لا تبصر ولا تسمع ، ولا تعطي ولا تمنع ، ولاتخفض ولا ترفع ، وهي لا تكلِّمهم ولا تهديهم سبيلا ، فكيف لا يحبُّ المؤمن ربَّه ، وهو كما قال إبراهيم الخليل : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ((الشعراء:78-82) ، وقد قال تعالى في موقف المشركين وموقف المؤمنين : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (البقرة:165)

2- حب الله لجماله وجلاله وكماله :

وكما يحبُّ المؤمن ربَّه لإحسانه وإنعامه عليه ، ويحبُّه أيضا لمجرَّد جماله وجلاله وكماله ، فهو سبحانه جميل يحبُّ الجمال ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وهو المتَّصف بكلِّ كمال ، المنزَّه عن كلِّ نقص ، له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، سبحانه لا نحصي ثناء عليه ، كما أثنى على نفسه ، لا يشبه شيئا ، ولا يشبهه شيء ، بل هو كما وصف نفسه : (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى:11) ، (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3)وَلَمْيَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)((الإخلاص:1-4) ، (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة:255) ، (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ

الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ((الحشر:23،24) .

فهذا هو الكمال الأعلى ، الذي لا يشوبه نقص ، ولا يتطرَّق إليه تغيير ، فهو كمال الكمالات ، ومصدر كلِّ كمال وجمال في العالم ، ومن طبيعة الإنسان أن يحبَّ كلَّ جميل ، وكلَّ كامل ، ومن هنا تعلَّق الناس بالأبطال ، وبنجوم العلم والأدب والفن والرياضة ، وغيرهم ، وبعضهم يحبُّ الواحد من هؤلاء حبًّا جنونيا ، وهو لم يره في حياته وجها لوجه .

بل ربما كان ميتا ، كما كنا نرى الناس في القرى يتعلَّقون بأبطال القصص التي يسمعونها ، مثل قصة عنترة بن شداد ، وأبو زيد الهلالى ، ونحوها ، ويفرحون لفرحهم ، ويألمون لألمهم ، وقد يمتنع أحدهم عن الطعام إذا أُسر بطل القصة ، ووقفت الحلقة عند هذا الحدِّ ، كما يفعل مخرجو المسلسلات في عصرنا.

وقد وصف القرآن الجيل الذي ادَّخره القدر لنصرة الإسلام ، حين يرتدُّ المرتدون ، بأنهم يحبُّون الله كما يحبُّهم الله تعالى ، قال سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَلَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ((المائدة:54)، كما جعل القرآن اتباع الرسول علامة على محبة المكلف لله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ((آل عمران:31،32) . بل جعل محبَّة الله ورسوله ، تفضل كلَّ ما يحرص الناس عليه في الدنيا من علائق القرابة والأبوَّة والبنوَّة والأخوَّة والزوجية والعشيرة والتجارة والأوطان التي يسكنها الناس ويستحبُّونها ، إذا وضعت كلُّ هذه الأمور في كفَّة ، وحبُّالله ورسوله والجهاد في سبيله في كفَّة أخرى ، وجب أن نرجِّح كفَّة حبِّ الله ورسوله والجهاد في سبيله ، كما قال عز وجل :)قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ((التوبة:24). وكثيرا ما يقترن ـ في القرآن والسنة ـ حبُّ الله بحبِّ رسوله ، فإن حبَّ رسوله ، إنما هو ثمرة لحبِّه تعالى ، فإن من أحبَّ الله ، أحبَّ كلَّ مَن يحبُّه الله ،وكلَّ مَن يحبُّ الله ، وكلَّ مَن يوالي الله ، أو من يواليه الله ، ومحمد هو أقرب الناس إلى الله ، وأحبُّهم إلى الله ، وهو المبلِّغ عن الله ، والداعي إلى الله ، والهادي إلى صراط الله ، فلهذا اقترن حبُّه بحبِّه ، وطاعته بطاعته ، (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (النساء:80)، وبيعته ببيعته ، (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح:10) .

جاء رجل يسأل النبي * : متى الساعة؟ فقال : =وماذا أعددتَ لها؟ . قال : لا شيء ، إلا أني أحبُّ الله ورسوله . فقال : =أنت مع مَن أحببتَ. قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي * :=أنت مع مَن أحببتَ . قال أنس : فأنا أحبُّ النبي * وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبِّي إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم (52).

الأساس القلبي أو الوجداني الثالث : الجمع بين الخوف والرجاء

ثم هناك الخوف والرجاء ، أن يخاف عذاب الله ويرجو رحمته ، النفس الإنسانية تحتاج إلى زمام يقودها ، وسوط يسوقها ، وكما قال ابن عطاء : (لا يُخرِج الشهوة من القلب إلا خوفٌ مُزْعِج ، أو شَوْق مُقلِق) (53). لا بد من شوق ولا بد من خوف ، لا بد من رَغَب ومن رَهَب ، لا بد من الأمرين معا ، الخوف والرجاء بحيث يتوازنان ، كما في القرآن الكريم : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر:9)، ووصف القرآن قوما بقوله : (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (الإسراء:57)، وقوما بقوله :)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (الأنبياء:90)، خوفا وطمعا ، هذا هو شأن المؤمنين ، التوازن بين الخوف والرجاء .

حتى قال عمر بن الخطاب n : لو نادى منادٍ يوم القيامة ، كلُّ الناس في الجنة إلا واحدا ، لخِفتُ أن أكون ذلك الواحد ، ولو نادى المنادي ، كلُّ الناس في النار إلا واحدا ، لرجوتُ أن أكون ذلك الواحد (54). فالرجاء والخوف يتوازنان في نفسه ، وهذا هو ما جاء به القرآن ، كما نرى في قوله تعالى : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ((الحجر:49،50)، فجعل الرحمة من أسمائه وصفاته ، وجعل العذاب من أفعاله ، وفرق بين الأمرين . لا بد من الأمرين ، فلم يقل : (وأني أنا المُعَذِّب) . لم يصف نفسه بذلك ، ولذلك قال ابن تيمية : (جعل المغفرة والرحمة من معاني أسمائه الحسنى ، التى يسمِّي بها نفسه ، فتكون المغفرة والرحمة من صفاته ، وأما العقاب الذي يتصلُّ بالعباد فهو مخلوق له ، وذلك هو الأليم ، فلم يقل : وأني أنا المعذِّب . ولا فى أسمائه الثابتة عن النبى * اسم المنتقم ، وإنما جاء المنتقم فى القرآن مقيَّدا كقوله : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ((السجدة:22)، وجاء معناه مضافا إلى الله فى قوله : (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ((إبراهيم:47)، وهذه نكرة في سياق الإثبات ، والنكرة فسياق الإثبات مطلقة ليس فيها عموم على سبيل الجمع) (55).

ويقول ابن القيم : (أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفردا ومقترنا بغيره ، وهو غالب الأسماء ، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم ، وهذا يسوغ أن يُدعى به مفردا ومقترنا بغيره ، فتقول : يا عزيز ، يا حليم ، يا غفور ، يا رحيم . وأن يفرد كلُّ اسم ، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه ، بما يسوغ لك الإفراد والجمع .

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده ، بل مقرونا بمقابله ، كالمانع والضار والمنتقم ، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله ، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو ، فهو المعطي المانع ، الضار النافع ، المنتقم العفو ، المعز المذل ؛ لأن الكمال في اقتران كلِّ اسم من هذه بما يقابله ؛ لأنه يراد به : أنه المنفرد بالربوبية ، وتدبير الخلق ، والتصرُّف فيهم عطاء ومنعا ، ونفعا وضرًّا ، وعفوا وانتقاما .

وأما أن يُثنى عليه بمجرَّد المنع والانتقام والإضرار ، فلا يسوغ ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض ، فهي وإن تعدَّدت ، جارية مجرى الاسم الواحد ، ولذلك لم تجئ مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة ، فاعلمه .

فلو قلت : يا مذلُّ ، يا ضارُّ ، يا مانع . وأخبرت بذلك ، لم تكن مثنيا عليه ، ولا حامدا له ، حتى تذكر مقابلها) (56).

والحديث الذي فيه اسم المُنْتَقِم ضَعَّفَه العلماء من حيث السند (57)، والقرآن الكريم يقول : (مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) (آل عمران:4) ، وفرق بين ذو انتقام وبين المُنتقِم ، المُنتقِم بلام التعريف هذه التي تفيدأنهاصفة ملازمة ، والله تعالى يقول :) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) (النساء:147)، وفي الحديث الصحيح عناللهتبارك وتعالى : =إن رحمتي سبقت غضبي(58).

وفي قوله تعالى : (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف:156)، نجد أن الله تعالى خصَّص في العذاب ، وعمَّم في الرحمة ، فالرحمة هي الأوسع والأسبق والأغلب ، ولكن المؤمن يخاف أن يكون لديه من الموانع ما يحول بينه وبين رحمة الله الواسعة ، فتغلب عليه الخشية والمخافة من الله ، ثم يتذكَّر عفو الله تعالى ، وعظم مغفرته ، وسَعة رحمته ، فيغلب عليه الرجاء ، وهكذا .

المهم أن يتوازن الرجاء والخوف في نفس المسلم ، بحيث لا يطغى عليه الخوف حتى يبلغ درجة اليأس من رَوْح الله ، أو يطغى عليه الرجاء حتى يبلغ درجة الأمن من مكر الله ، لا بد من الأمرين معا .

وفي القرآن الكريم : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة:98) ، (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَالنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ((البقرة:235) ، (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) (الرعد:6) ، (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَاإِلَّامَتَاعُالْغُرُورِ((الحديد:20)، (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (غافر:3)، حتى قال الإمام الغَزَّالي : (انظر إلى قول الله تعالى : (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) (ق:33)، فعلق الخشية باسم الرحمن ، دون اسم الجبار أو المنتقم أو المتكبِّر ونحوه ؛ليكون تخويفا في تأمين ، وتحريكا في تسكين . . . والمراد من ذلك أن يكون الطريق عدلا ، فلا تذهب إلى أمن أو قنوط) (59).

أيها الإخوة : لا أريد أن أطيل أكثر من ذلك ، فالإخوان أكرمهم الله ، أعطَوني موضوعا واسعا رَحبا ، أريد أن أجمع الحديث فأقول :

الحياة الروحية الربانية الإيمانية في الإسلام ، لها أسُس هي الإيمان بالله والإيمان بالآخرة ، والإيمان بالغيب ، ومنه الإيمان بالرُّوح الإنساني . وهناك أساس علمي ، لا بد من العلم والفقه في الدين ، والرجوع إلى الكتاب والسنة ، وهناك أساس عملي ، يتمثَّل في التعبُّد لله تعالى ، بمعناه الواسع ، ويتمثَّل في الإحسان إلى خلق الله ، ثم هناك من ناحية السلب ، من ناحية الترك ، الورع عن ما حرَّم الله ، ابتداء من الشرك ، إلى الورع عن بعض المباحات ، حتى يَدَع ما لا باس به حذرا مما به بأس ، ثم يأتي الزهد ، ثم تأتي تلك المعاني الوجدانية ، الأخلاق المنجيات ، التي فصَّل فيها الإمام الغزالي ، هذه هي أُسُس الحياة الروحية الربانية في الإسلام .

خصائص الحياة الروحية

وهذه الحياة لها خصائص ، تحتاج إلى حديث آخر ، فمن خصائصها : الاتباع ، ومن خصائصها الشمول ، ومن خصائصها الاستمرار ، ومن خصائصها التَنَوُّع ، ومن خصائصها أشياء كثيرة ، لا يتَّسع المقام لذكرها (60).

ثمرات الحياة الروحية

وللحياة الروحية الربانية في الإسلام ثمرات في الآخرة ، وثمرات في الدنيا

من ثمرات الحياة الروحية في الآخرة

مَثُوبَةُ الله تعالى ورضوانُه ، قال الله تعالى : (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران:15) .

ومن ثمراتها في الدنيا : سكينة النفس ، وطمأنينة القلب ، وصدق الله : (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:28) .

ومن ثمراتها : الأمن النفسي ، الذي لا خوف معه : كما قال الله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأنعام:82).

ومن ثمراتها : الهداية ، قال تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(التغابن:11).

ومن ثمراتها : النور القلبي ، والفرقان بين الحقّ والباطل ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الحديد:28)، وقال تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الأنفال:29).

ومن ثمراتها : السعادة والرضا ، التي سمَّاها الحديث : (حلاوة الإيمان) ، كما في الحديث الصحيح : =ثلاث مَن كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار (61).

وذلك ما عبَّر عنه مَن عبَّر بقوله : إننا نعيش في سعادة ، لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف . وذلك من فضل الله ، أن الملوك لا يعرفون قيمة هذه السعادة ، ولذلك تركوها لهم ينعمون بها ، دون أن يزاحموهم عليها . وذكر ابن تيمية أن بعض السلف كانوا يقولون : إننا تمرُّ علينا أحيانا ساعات ، نحسُّ فيها بالفرح والرَّوح ، حتى نقول : لو أن أهل الجنة كانوا على ما مثل ما نحن فيه ، لكانوا في عيش طيب!

يعيشون في جنة على وجه الأرض ، هم في الجنة قبل الجنة ، هذه هي السعادة ، السعادة التي عبَّرت عنها أم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب ، وزوج عمر ، حينما اختلفا في أمر من أمور المنزل ، فقال لها : لأشقينَّك . قالت : لا تستطيع ، لو كانت سعادتي في زينة لقطعتَها عنِّي ، أو في مال لحرمتني منه ، ولكني أرى سعادتي في إيماني ، وإيماني في قلبي ، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي .

حاجتنا للحياة الروحية

هذه هي السعادة ، التي لا يستغني عنها أحد ، ولهذا نقول مؤكِّدين : نحن في حاجة إلى هذه الحياة الروحية الربانية الإيمانية الأخلاقية ، لنخفِّف بها من غلواء النزعة المادية ، التي زحفت إلينا ، وسرت إلينا عدواها ، كما يسرى السُّم في الطعام ، نحن في حاجة إلى هذه الحياة ، لنُقِيم بها أمر الله تعالى ، هذه الحياة ليست خاصة بطائفة من الطوائف ، الحياة الرُّوحية كما جاءت في الكتاب والسنة ، ليست لفئة خاصَّة من الناس ، كبعض المتصوِّفة المشتغلين بمجاهدة النفس ، إن كلَّ مسلم لا بد أن يحيا هذه الحياة ، فهي حياة ممتدَّة .

شاع عند الكثيرين ، أن الحياة الروحية يمثِّلها الإحسان ، في حديث جبريل : =قال : فأخبرني عن الإحسان؟ فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك+ (62).

وأنا أقول : الإحسان يمثِّل قمَّة الحياة الروحية كلِّها ، ولكن الحياة الروحية أولها الإسلام ، وأوسطها الإيمان ، وآخرها الإحسان ، كلُّها تشملها الحياة الروحية ، الحياة الروحية هذه لا يختلف فيها اثنان ، ولا ينتطح فيها عَنْزان ، لا يختلف مَن ينتسب إلى المدرسة السلفية ، ومَن ينتسب إلى المدارس الصوفية حول هذه الحياة ، المستمدَّة من مُحكَم القرآن وصحيح السُّنَّة .

هذه الحياة ينبغي أن نعضَّ عليها بالنواجذ ، ونَدَع ما ابتدع المبتدعون ، وما خلَّف المتأخِّرون ، لنَعُد إلى العهد الأول ، كما قال إمام دار الهجرة ، مالك بن أنس : لا يَصلُح آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلَح به أولُها . وقد حفظنا في الأزهر ، ونحن ندرس جوهرة التوحيد ، هذه المنظومة التي يقول فيها صاحبُها :

وكلُّ خير في اتِّباع مَن سَلَفْ

وكلُّ شرٍّ في ابتداع مَن خَلَفْ

إن الحياة الربانية الروحية ، هي محور حياة الإنسان المسلم ، وهي حاجة وضرورة إيمانية ودينية ودنيوية ، نحن في حاجة إليها ، المرء في حاجة إليها ، ليَطمئنَّ ويَسعد ، والمجتمع في حاجة إليها ، ليتماسك ويَرْقَى ، والبشرية كلُّها في حاجة إليها ، لتنجو وتسلم وتتزكَّى . نحن في حاجة إليها ليقْوَى اقتصادُنا ، وليستقيم أمرنا ، ولتتقوَّم أخلاقنا ، ولنُقاوِم الوَهْن والضعف ، الذي مَكَّن منا أعداءنا ، والذي أشار إليه الحديث ، الذي رواه أحمد وأبو داود : =وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن+ . قالوا : وما الوهن ، يا رسول الله ؟ قال : =حبُّ الدنيا وكراهية الموت+(63).

بهذه الحياة الإيمانية نتغلَّب على عوامل الضعف ، ونستطيع أن نتبوَّء مكانتنا تحت الشمس ، وأن نعود كما كان الصحابة ، الذين وُصِفوا بأنهم رُهْبان الليل ، وفُرْسان النهار ، والذين ذكرهم القرآن فقال : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح:29).

نسأل الله أن يُنِير طريقنا ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وأن يجمع كلمتنا على الحقِّ والهدى ، وأن يجعلنا من الذين يعلمون فيعملون ، ويعملون فيُخلِصون ، ويُخلِصون فيُقْبَلون ، اللهم آمين .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الهوامش

(1) ألقيت هذه المحاضرة في ملتقي الفكر الإسلامي في الجزائر وكان موضوعه (الحياة الروحية في الإسلام) وكانت المحاضرة الأولى ، وقد طلبت مني عند حضوري إلى الجزائر ، ولم أكن أعددتُ شيئًا مكتوبًا .

(2) انظر: اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر صـ25 ، 26 ، للدكتور محمد محمد حسين ، دار الإرشاد ، بيروت ، الطبعة الثانية 1971م .

(3) ككتابه إلى هرقل : =بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ...، متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (7) ، ومسلم في الجهاد والسير (1773) ، كما رواه أحمد (2370) ، وأبو داود في الأدب (5136) ، والترمذي في الاستئذان (2717) ، عن أبي سفيان بن حرب .

(4) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (234) ، وأبو نعيم في الحلية (5/278) مطولا ، خطب عمر بن عبد العزيز فقال: أيها الناس ، إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به إنكم لحمقى ، وإن كنتم تكذبون به إنكم لهلكى ، إنما خُلقتم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون . عباد الله ، إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرُّون بها ، إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه ، وخالدون فيه . ثم غلبه البكاء فنزل .

(5) أبو العتاهية .

(6) انظر الفتوحات المكية (1/365) ، والقائل: أبو يزيد البسطامي .

(7) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (7/243) .

(8) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (34/127) ، وانظر: مدارج السالكين (2/464) ، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي ، دار الكتب العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية 1393هـ 1973م .

(9) رواه الربعي في وصايا العلماء عند حضور الموت صـ33 من وصية أبي بكر لعمر .

(10) رواه البخاري في الرقاق (6502) ، وابن حبان في البر والإحسان (347) ، عن أبي هريرة .

(11) رواه أحمد في المسند (12293) ، وقال مخرجوه: إسناده حسن ، والنسائي في عشرة النساء (3939) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (3291) ، والضياء في المختارة (1532) وصحح إسناده ، عن أنس .

(12) رواه أحمد في المسند (23154) وقال مخرجوه : رجاله ثقات لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد . وأبو داود في الأدب (4986) وصححه الألباني في المشكاة (1253) ، عن رجل من الأنصار .

(13) رواه أحمد في المسند (8856) ، وقال مخرجوه: إسناده جيد ، وابن ماجه في الصيام (1690) ، والنسائي الكبري كتاب الصيام (3319) ، وحسنه الألباني : في المشكاة (2014) ، عن أبي هريرة .

(14) رواه البخاري في الصوم (1903) ، وأحمد (9839) ، وأبو داود (2362) ، والترمذي (707) ، وابن ماجه (1689) ، ثلاثتهم في الصوم ، عن أبي هريرة .

(15) رواه مسلم في الآداب (2137) ، وأحمد في المسند (20223) ، وأبو داود (4958) ، والترمذي (2836)، ابن ماجه (3730) ، ثلاثتهم في الأدب ، عن سمرة .

(16) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (7563) ، ومسلم في الذكر والدعاء (2694) ، كما رواه أحمد (7176) ، والترمذي في الدعوات (3467) ، وابن ماجه في الأدب (3806) ، عن أبي هريرة .

(17) عن عمر بن أبي سلمة n قال: قال لي رسول الله *: =سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك. متفق عليه : رواه البخاري في الأطعمة (5376)، ومسلم في الأشربة (2022) ، وكما رواه أحمد في المسند (16330) ، وابن ماجه في الأطعمة (3267).

(18) عن أنس n قال : قال رسول الله * : =إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها. رواه مسلم في الذكر والدعاء (2734) ، وأحمد في المسند (11973) ، والترمذي في الأطعمة (1816) ، عن أنس .

(19) عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله * ، إذا استجدَّ ثوبا سمَّاه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء ثم يقول: =اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شرِّه ومن شرِّ ما صنع له. رواه أحمد في المسند (11469) ، وقال مخرجوه: حسن ، وأبو داود (4020) ، والترمذي (1767) ، وقال: حديث حسن ، كلاهما في اللباس ، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (10068)، عن أبي سعيد الخدري .

(20) عن جابر بن عبد الله ، أنه سمع النبي * يقول: =إذا دخل الرجل بيته ، فذكر الله عند دخوله ، وعند طعامه قال: الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء . وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله ، قال الشيطان: أدركتم المبيت . وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء. رواه مسلم في الأشربة (2018)، وأحمد في المسند (14729)، وأبو داود في الأطعمة (3765)، وابن ماجه في الدعاء (3887) ، عن جابر .

(21) عن أم سلمة قالت: ما خرج النبي * من بيتي قط ، إلا رفع طرفه إلى السماء فقال : =اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل عليَّ. رواه أبو داود في الأدب (5094)، والترمذي في الدعوات (3427)، وقال: حسن صحيح ، والنسائي في الاستعاذة (5486) ، وابن ماجه في الدعاء (3884) ، عن أم سلمة .

(22) عن ابن عمر ، أن رسول الله * ، كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر، كبَّر ثلاثا ثم قال: =سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له == == مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطوِ عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر

، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل. وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: =آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون. رواه مسلم في الحج (1342) ، وأحمد في المسند (6311) ، وأبو داود في الجهاد (2599) ، والترمذي في الدعوات (3447) ، عن ابن عمر .

(23) عن خولة بنت حكيم السلمية تقول: سمعت رسول الله * يقول: =مَن نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك. رواه مسلم في الذكر والدعاء (2708) ، وأحمد في المسند (27122) ، والترمذي في الدعوات (3437) ، وابن ماجه في الطب (3547) ، عن خولة بنت حكيم السلمية .

(24) عن حذيفة بن اليمان قال: كان النبي * إذا أوى إلى فراشه قال: =باسمك أموت وأحيا. وإذا قام قال: =الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور. رواه البخاري في الدعوات (6312) ، وأحمد في المسند (23271) ، وأبو داود في الأدب (5049) ، والترمذي (3417) ، وابن ماجه (3880) ، كلاهما في الدعاء ، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (10515) ، عن حذيفة .

(25) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (141) ، ومسلم في النكاح (1434) ، كما رواه أحمد (1867) ، وأبو داود (2161) ، والترمذي (1092) ، كلاهما في النكاح والنسائي في الكبري كتاب عشرة النساء (8981) ، وابن ماجه في النكاح (1919) ، عن ابن عباس .

(26) رواه مسلم في الزكاة (1006) ، وأحمد (21469) ، وابن حبان في النكاح (4167) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الزكاة (4/188) .

(27) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (3482) ، ومسلم في السلام (2242) ، عن ابن عمر .

(28) رواه مسلم في السلام (2245) ، وأحمد (10583) ، وأبو يعلي (6035) ، عن أبي هريرة .

(29) مجموع الفتاوي (27/195) .

(30) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (3/75) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (54/256) .

(31) مدارج السالكين لابن القيم (2/307) .

(32) رواه الحاكم في تواريخ المتقدمين (2/613) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (10/191) ، وابن عبد البر في التمهيد (24/333) وصححه ، عن أبي هريرة .

(33) رواه أحمد في المسند (3818) ، وقال مخرجوه: حسن لغيره ، والطبراني في الكبير(10/212) ، والأوسط (2529) ، وقال الهيثمي في المجمع (11/64): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق ، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (2470) ، عن ابن مسعود .

(34) عن الوليد بن أبي الوليد ، أن رجلا من أصحاب رسول الله * حضره الموت فبكى ، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أما إني لا أبكي على الدنيا ، ولكني أبكي أخاف أن أكون كنتُ أقول قولا أحسبه

هينا ، وهو عند الله عظيم . رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (365) .

(35) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (6308)، ومسلم في التوبة (2744)، كما رواه وأحمد (3627)، والترمذي في الورع (2497)، عن ابن مسعود .

(36) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (52) ، ومسلم في المساقاة (1599) ، كما رواه أحمد (18374) ، وأبو داود (3329) ، والترمذي (1205) ، والنسائي (4453) ، ثلاثتهم في البيوع وابن ماجه في الفتن (3984) ، عن النعمان بن بشير .

(37) عن الشعبي قال: قال عمر: تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا . رواه عبد الرزاق في البيوع (8/152) ، وهو منقطع ، الشعبي لم يدرك عمر .

(38) رواه الترمذي في صفة القيامة (2451) ، وقال: حديث حسن غريب ، وابن ماجه في الزهد (4215) ، والطبراني في الكبير (17/168) ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (435) ، عن عطية السعدي .

(39) رواه ابن ماجه في الزهد (4102) ، والحاكم في الرقاق (4/313) ، وصحح إسناده ، وقال الذهبي : خالد بن عمرو القرشي وضاع ، == == والطبراني في الكبير (6/193) ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (944) ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (4/74): وقد حسَّن بعضُ مشايخنا إسناده . وفيه بُعْدٌ ؛ لأنه من رواية خالد بن عمرو القرشي الأمويّ ، عن سفيان الثوري ، عن أبي حازم ، عن سهل ، وخالد هذا قد تُرِك واتُّهم ، ولم أر من وثقه ، لكن على هذا الحديث لامعةٌ من أنوار النبوة ، ولا يمنع كون راويه ضعيفًا أن يكون النبيُّ * قاله ، وقد تابعه عليه محمد بن كثير الصنعاني عن سفيان ومحمد هذا قد وثق على ضعفه وهو أصلح حالا من خالد والله أعلم . عن سهل بن سعد .

(40) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ31-32 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1400هـ 1980م .

(41) انظر : الإحياء (2/62) .

(42) رواه أحمد في المسند (12981) ، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ، والبخاري في الأدب المفرد (479) ، والضياء في المختارة (2715) ، وصحح إسناده ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (9) ، عن أنس بن مالك .

(43) جزء من حديث رواه الترمذي في الدعوات (3502) ، وقال الترمذي: حسن غريب ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (2783) ، والنسائي في الكبرى ، كتاب عمل اليوم والليلة (10161) ، عن ابن عمر .

(44) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (1) ، ومسلم في الإمارة (1907) ، كما رواه أحمد (168)، وأبو داود في الطلاق (2201)، والترمذي في الجهاد (1647) ، والنسائي الطهارة (75) ، وابن ماجه في الزهد (4227)، عن عمر .

(45) متفق عليه: رواه البخاري (1421) ، ومسلم (1022) ، كما رواه النسائي (2523) ، ثلاثتهم في الزكاة ، ولفظ الحديث عن أبي هريرة ، عن النبي * قال: =قال رجل لأتصدقن بصدقة

، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون تُصُدِّق على سارق ، فقال اللهم لك الحمد على سارق؟ لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون تُصُدِّق الليلة على زانية ، فقال اللهم لك الحمد على زانية؟ لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني ، فأصبحوا يتحدثون تُصُدِّق على غني ، فقال اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني ؟ فأُتِيَ فقيل له أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله .

(46) حكم ابن عطاء الله صـ59 ، شرح العارف بالله الشيخ زروق ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، ود . محمود بن الشريف ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .

(47) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (179) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (26/33) ، عن عامر بن عبد الله .

(48) يشير إلي الحديث الذي رواه مسلم في البر والصلة (2564) ، وأحمد (7713) ، عن أبي هريرة ، عن النبي * : =لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يَحْقِرُه ، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه .

(49) انظر: حكم ابن عطاء الله صـ222، 223 .

(50) رواه مسلم في الإمارة (1905) ، وأحمد (8277) ، والنسائي في الجهاد (3137) ، عن أبي هريرة .

(51) رواه الترمذي في المناقب (3789) ، وقال: حسن غريب ، والحاكم في معرفة الصحابة (3/162) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية (3/211) ، وضعفه الألباني في فقة السيرة (20) ، عن ابن عباس .

(52) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي (3688)، ومسلم في البر والصلة (2639) ، كما رواه أحمد (12075) ، عن أنس بن مالك .

(53) انظر: حكم ابن عطاء الله صـ359 .

(54) رواه أبو نعيم في الحلية (1/53) .

(55) مجموع الفتاوى (17/94 ، 95).

(56) بدائع الفوائد لابن القيم (1/177) ، تحقيق هشام عبد العزيز عطا وآخرون ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الطبعة الأولى 1416هـ 1996م .

(57) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله *: =إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مَن أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس . . . . وفيه: =المنتقم، رواه الترمذي في الدعوات (3507) ، وقال: هذا حديث غريب ، وابن حبان في الرقائق (3/88) ، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات ، والحاكم في الإيمان (1/62) ، وقال: خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه ، والعلة فيه عندهما أن الوليد ابن مسلم تفرد بسياقته

بطوله ، وذكر أسامي فيه ولم يذكرها غيره ، وليس هذا بعلة ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الإيمان (1/114) ، وقال: ذكر الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني أن من هذه الأسماء ثمانية وعشرين اسما للذات ، وثمانية وعشرين اسما لصفات الذات ، وثلاثة وأربعين اسما للفعل . والبيهقي في الكبرى كتاب الإيمان (10/27) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (1945) .

(58) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (7404)، ومسلم في التوبة (2751)، عن أبي هريرة .

(59) منهاج العابدين للغزالي صـ257 ، تحقيق محمود مصطفى حلاوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى 1409هـ 1989م .

(60) راجع هذه الخصائص في كتابنا (الحياة الربانية والعلم) صـ31 – 48 ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

(61) متفق عليه: رواه البخاري (16) ، ومسلم (43) ، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (13592) ، والترمذي في الإيمان (2624) ، عن أنس .

(62) متفق عليه رواه البخاري (50)، ومسلم في الإيمان (8)، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (9501)، وابن ماجه في الإيمان (64)، عن أبي هريرة .

(63) رواه أحمد في المسند (22397) ، وقال مخرجوه: إسناده حسن ، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه وإسناد أحمد جيد (7/563) ، وأبو داود في الملاحم (4297) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (958) ، عن ثوبان .